أضواء على إشكالية دراسة تاريخ الحروب الصليبية فى القرنين ١٢-١٣م/ ٦ - ٧هـ

د. محمد مؤنس عوض*

مصـــر

إن البحث في إشكالية عصر تاريخى ما؛ من شأنها تعميق دراسة ذلك العصر، ومن المقرر أنه لا يوجد عصر ما من عصور التاريخ دون أن توجد فى ثناياه إشكاليته الخاصة به النابعة من ظروفه ذاتها، وأود التقرير بأن عصر الحروب الصليبية التى شنها الغرب الكاثوليكى على مسلمى بلاد الشام وأعالى العراق ومصر وشمالى أفريقيا على مدى القرنين المذكورين، يوصف وبحق بأنه عصر معقد في تركيبته السياسية، والاقتصادية، والدينية، والعرقية إلى آخر تلك المفردات بحيث يمكن القول أنه العصر "الأنموذج" فى إشكاليات الكتابة التاريخية، فقد شهد الصدام العنيف – على كافة الأصعدة والمستويات – بين حضارة الغرب الأوربى وحضارة الشرق الإسلامى، وتعددت الشعوب، والأقوام، والأعراق التى دخلت فى آتون ذلك الصراع، وبالفعل كان صراعاً عالمياً فى تلك المرحلة من مراحل القرون الوسطى، وطوال تلك القرون لم يحدث أن شهد العالم صداماً عنيفاً بمثل تلك الصورة ودفع مئات الآلاف حياتهم دفاعاً عن معتقداتهم سواء كانوا على صواب أم على باطل، كذلك تصارعت المثل والمبادىء السامية مع الدوافع المادية الدنيوية، وبمرور الأعوام والعقود سقطت أقنعة الرهبان وتم إدراك أن المصالح الاقتصادية كان لها القدح المعلى فى العديد من المواقف الحاسمة من تاريخ ذلك الصراع.

زد على ذلك؛ أن رقعة الصراع جغرفياً اتسعت بصورة غير مسبوقة ومن الممكن وصفه فى بعض مراحله بأنه صراع بحر متوسطى بين غربى ذلك البحر وشرقه، واستهدف فيما استهدف لتينة الشرق وتنصيره وسلب ونهب ثرواته بالصورة التى جعلت المؤرخ البارز يوشع براور يصفه بأنه حركة الاستعمار – أى الاستخراب – الأوربى في العصور الوسطى وفيما بعد خرج المشروع الصليبى عن نطاق البحر المذكور ليشمل مناطق في داخل القارة الأوربية ذاتها ومنها ما كان يطل على بحر البلطيق.

ومن السمات البارزة لذلك العصر الذى عرف بعصر الحروب الصليبية، أن مسمياته تناقضت مع واقعة بصورة حادة؛ فالبابوية التى عُدت مؤسسة دينية صرفة، لعبت الأدوار السياسية الكاملة، ومارست العمل فى دهاليزها وتجردت من المبادىء أحياناً من أجل تحقيق أهدافها بميكيافيلية نادرة، على نحو يثبت أن المشروع الصليبى ذاته يعد – وبحق–

---

* أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد بكلية الآداب– جامعة عين شمس.

لعـــبة سياســـية كـــبرى هندست لها البابوية، ووضعتها موضع التنفيذ، حتى صارت جزءاً لا يتجزأ من التاريخ الأوربى الوسيط، وعلاقاته بالشرق.

تلـــك مقدمـــة موجزة، من أجل تهيئة القارىء للموضوع الأساسى الخاص بإشكالية دراســـة تـــاريخ الحـــروب الصليبية، وفى واقع الأمر أن هناك جملة زوايا يمكن إجمالها فى الآتى:

أولاً: الرؤية الرسمية للمصادر التاريخية المعاصرة:

فمـــن المعـــروف؛ أن المؤرخيـــن الذيـــن عاصروا أحداث تلك الحروب سواءً من المســـلمين أو الصليبيين أو البيزنطيين كتبوا كتاباتهم التاريخية وهم فى كنف السلطة السياسية القائمة، فالكتابة التاريخية التى وصلت إلينا من ذلك العصر توصف بالفعل أنها تابعة للسلطة، وأمتزجـــت فيها الدعائية جنباً إلى جنب مع الحقائق التاريخية، وبالتالى فإننا نملك بالفعل مادة تاريخـــية مهمة عن الحروب الصليبية، ولكن من وجهة النظر الرسمية. وواقع الأمر؛ أن تلك المشـــكلة لا ترتبط بذلك العصر فقط بل بعصور تاريخية متعددة قديماً ووسيطاً – بصفة عامة – وبدرجـــة أقل حديثاً، وهى تحمل فى طياتها جوانب إيجابية وسلبية معاً؛ فالمؤرخ الذى أفاد مـــن الوثـــائق الرســـمية، وعاصر القادة الذين صنعوا الأحداث له أهمية كبرى لأنه بدونه ما وصـــلت إليـــنا تلك المادة التاريخية المصدرية. بيد أن هناك جوانب سلبية أخرى، إذ أن ذلك المـــؤرخ اتجه أحياناً إلى الدعاية السياسية لأرباب السلطة من الملوك والأباطرة، والسلاطين، والأمراء. ومن الصعب فى ذلك العصر الفصل بين "الدعاية السياسية"، و"الكتابة التاريخية" إذ أن هناك مؤلفات متعددة وصلت إلينا احتوت الزاويتين بجلاء لا ينكر.

وخـــير مثال دال على "الدعائية" فى ذلك العصر ما ألفه المؤرخ العراقى البارز ابن الأثير[1] الذى ألفه كتابه "الباهر" وخصصه لتناول دولة أتابكة الموصل الزنكيين، وفيه يتأكد لنا أن ارتـــباطه بـــتلك الأسرة؛ جعله بوقاً دعائياً لها، وذلك على الرغم من إدراكنا للدور البارز الـــذى لعبته الموصل، وتلك الأسرة فى جهاد الصليبيين، وتوجيه ضربة قاضية لأولى إمارات الصـــليبيين فـــي المنطقة ونعنى بها الرها Edessa عام ١١٤٤م بالإضافة إلى إسهامات نور الديـــن محمود ودوره فى ضم دمشق عام ١١٥٤م، وإسقاط الدولة الفاطمية فى عام ١١٧١م/ ٥٦٧هـــ.

ولا نغفـــل زاوية محورية هنا، تتمثل فى أن المعاصرة حجاب، فالمؤرخ المعاصر، علـــى الرغم من علو شأنه كما أسلفت، عندما اقترب من القادة البارزين الكبار خاصة أولئك

---

[1] أود أن ألفـــت نظـــر الباحثين إلى أن الباحثة العراقية ميسون عبايجى تقوم بإعداد أطروحة علمية عن ابن الأثير مؤرخاً للحروب الصليبية، وذلك من جانب مركز دراسات الموصل التابع لجامعة الموصل بالعراق الشقيق تحت إشراف أ.د. جزيل عبد الجبار الجومرد.

الذين كانت لهم شخصية مؤثرة فى الآخرين وتوصف بالفعل بأنها "كارزمية"[2] انبهر بهم، ولم ير فيهم إلا ما أحب هو نفسه أن يراه، وتلك زاوية لا علاج لها؛ لأن المؤرخ المتأخر نقل عن المعاصر، وأفادت الرؤية جيلاً بعد آخر حتى وصلت إلى المؤرخ المحدث على طبيعتها تلك.

وأصـــدق دلـــيل علـــى ذلك؛ أن مؤرخ الصليبيين البارز وأعنى به وليم الصورى[3] Wiliam of Tyre فى كتابه عن تاريخ الأعمال التى جرت فيما وراء البحر A history of the deeds done beyond the sea، وجه نقده لسياسات الصليبيين فيما قبل الملك عمورى الأول (١١٦٣- ١١٧٤م)، أمـــا فى عهد الملك المذكور فقد اتسمت كتاباته بالوقوع في نطاق "الكاريـــزما" أو المحبوبية أو التأثيرية التى كانت لذلك الملك الصليبى البارز، ولا ريب في أن إعجـــاب وليم الصورى بالملك عمورى ساعد على توجيه منظوره التاريخى خاصة من خلال إعجابه بحملاته العسكرية التى استهدفت الجار الفاطمى الذى كان يعانى من الانهيار الداخلى، واعتبر رجل المنطقة المريض في القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى.

ومـــن ناحـــية آخرى؛ نلاحظ أنه كنتيجة للجانب الرسمى فى الكتابة التاريخية صار لديـــنا تـــاريخ للحكام ولا نملك تاريخاً للشعوب فالمؤرخون الذين انتموا إلى شرائح اجتماعية عالـــية المستوى منهم من نظر إلى العامة نظرة احتقار ودونية بصورة انعكست على كتاباته ذاتها، وهكذا؛ تتأكد لنا المقولة التى تذهب إلى أن "التاريخ تصنعه الشعوب وينسبه المؤرخون إلـــى الحكـــام"، وذلك على الرغم من أن تلك الشعوب أفرزت قادتها وحكامها، كما أنها دفعت الثمـــن غالياً فى مواجهة ما حل بها من عدوان سافر من جانب قوى استعمارية أجنبية طامعة فى خياراتها، واصدق مثال دال على ذلك الشعوب الإسلامية ذاتها، التى لا نملك – فى الغالب الأعـــم – تاريخاً فى ذلك العصر بل نملك تاريخاً لحكامها أنفسهم، ولاريب فى أن المؤرخين الرســـميين يـــتحملون جانـــباً بـــارزاً مـــن تلك المسئولية، ونخلص من كل ذلك إلى أن حجم "الرسمية" يطغى بجلاء على "الشعبية" فى تاريخ تلك المرحلة من مراحل الصراع بين الشرق والغـــرب فى القرون الوسطى، وقد يرد البعض بأن الف ليلة وليلة بها بعض من أصداء تلك الحـــروب، غير أن ذلك محدود لا يتفق كماً وكيفاً مع تلك الأحداث الصاخبة التى أكتويت بها

---

[2] عن تلك الزاوية أنظر ما ورد بشأنها في كتابي: الحروب الصليبية من قضايا السياسية والمياه والحياه والعقيدة ط. القاهرة ٢٠٠١م.

[3] عن وليم الصورى انظر:

Krey, "William of Tyre the making ofAn Historian in the middle Ages", Speculum, vol. Xvi, 1941, pp. 149-166.

Davis, "William of Tyre", in Relations between East and West in the Middle Ages, ed. Derck, Edinburgh 1971, pp. 64 – 75.

Vissey, "William of Tyre and the art of Historiography", M.S., vol. XXXV, 1973, pp. 433-455.

Crawford, "William of Tyre and the Maronites", Speculum, vol. XXX, 1955, pp. 222-228.

Edbury and Rowe, "William of Tyre and the patriarchal election of 1180", E.H.R., vol. XCLL, 1979, pp. 1-25.

شـــعوب المنطقة. ونفس الأمر ينطبق على شعوب الغرب الأوربى ذاتها فتغيب الدور الشعبى قضية شرقية وغربية على حد سواء ولم تكن زاوية شرقية فقط.

مـــع ملاحظـــة وجود استثناء فى صورة ما يعرف بالساجا Saga وهى عبارة عن الملاحـــم النـــثرية النرويجـــية وهى خاصة بتاريخ النرويج فى أقصى شمال غربى أوربا وقد ارتبطت ببطولة قادة النرويج فى العصور الوسطى، ومن أمثلتها تلك الخاصة بالملك سيجورد Sigurd الذى قام بحملة صليبية إلى بلاد الشام خلال المرحلة من ١١٠٧- ١١١٠م/ ٥٠١ – ٥٠٤هـ[4].

ومع ذلك، فإن الساجا تعد مصدراً تاريخياً خاصاً بتلك الدولة ولا تتعداها إلى مناطق أخـــرى، أمـــا بالنســـبة للـــدول الأخرى خاصة انجلترا وفرنسا وألمانيا فهى تعانى فى عصر الصليبيات من نفس تلك المشكلة.

ثانياً: اتجاهات المؤرخين المذهبية وأثرها على الكتابة التاريخية:

مـــن الملاحـــظ؛ أن المـــيول الذهبية لمؤرخى تلك الأحداث أثرت تاثيراً بارزاً على كـــتاباتهم التاريخـــية، وفـــى هـــذا المجال؛ نلاحظ بجلاء أننا لا نملك تصوراً تاريخياً للدولة الفاطمية من زاوية شيعية صرفة بل من خلال وجهة النظر السنية المعادية لمؤرخين ارتبطوا بالعصرين الأيوبى والمملوكى، ونفس الأمر يمكن أن يقال بالنسبة للفرق والقوى الدينية التى وجدت فى بلاد الشام فى ذلك العصر سواءً بالنسبة للدروز أو الإسماعيلية النزارية[5]، لقد كان عداء المؤرخين السنيين لتلك القوى شديداً ووصفوهم بالتالى بأوصاف بالغة السوء، وضاعت عن عمد أو من خلال أحداث الصراع الحربى بين المسلمين والصليبيين آية كتابات تعبر عن وجهـــة نظـــرهم إلا مـــا ندر فى صورة شذرات هنا وهناك. وأورد التقرير؛ أن تلك الآراء أوردهـــا على الرغم من الدور السيئ الذى قامت به عناصر الإسماعيلية النزارية فى اغتيال قادة الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين حينذاك مثل شرف مودود وغيره من كبار القادة.

وعلـــى الـــرغم من أن لدينا قدراً من المصادر الشيعية فى صورة المؤرخ الشيعى الحلـــبى ابـــن أبى طىء[6] الذى وصلت إلينا بعض النقول من مؤلفاته فى صورة ما أورده أبو

---

[4] عن الساجا انظر:

The Oxford reference dictionary, London 1962, p.726, Wright, the Geographical lore in the time of the Crusades, New york 1965, p.346, the Oxford English dictionary, vol. Lx, Oxford 1973, p.82, Dictionary of the Middle Ages, Newyork 1989, p.616.

وانظـــر هذه الدراسة: محمد مؤنس عوض، "الحملة الصليبية النرويجية الملك سيجورد ودوره في دعم الحركة الصليبية (١١٠٧ – ١١١٠م/ ٥٠١ – ٥٠٤هـــ)"، ضمن كتاب الحروب الصليبية دراسات تاريخية ونقدية، ط. عمان ١٩٩٩م، ص٧ – ص٦٠.

[5] عن ذلك انظر:محمد مؤنس عوض، التنظيمات الدينية الإسلامية المسيحية في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب – جامعة عين شمس.م ١٩٨١م، ص١٩٧ – ٣٤٣.

[6] تقـــوم الباحـــثة شـــيرين شلبى عشماوى المدرسة المساعدة بكلية البنات – جامعة عين شمس بإعداد أطروحة علمية عن المؤرخ ابن أبى طىء بأشراف المؤرخة الرائدة أ.د. سيدة إسماعيل كاشف.

شـــامة المقدسى (ت١٢٦٧م/ ١٢٦٧م) وابن الفرات (ت ١٤٠٥م/ ١٤٠٥م)، إلا أن هذا القدر محدود.

وعلـــى الجانب الآخر؛ لدينا رؤية البابوية واضحة، بينما لا نملك رؤية الوالدنسيين والكتاريـــين الذين عارضوا المؤسسة الدينية الأوربية في ذلك العصر؛ على نحو يثبت لنا أن القضـــية لم تكن مقتصرة على الشرق فقط، بل أن الغرب كان له أيضاً نصيبه فى تلك الزاوية تماماً مثل مشكلة الطابع الرسمى الذى تناولتها من قبل.

ولا ريـــب فى أن الميول المذهبية لمؤرخى ذلك العصر، كان لها دورها البارز فى كـــتاباتهم التاريخـــية، ومن اليسير اكتشاف المعتقد الدينى والمذهبى لمؤرخ ذلك العصر دون كبـــير عـــناء من خلال تصفح ما كتب من خلال تعاظم الظاهرة الدينية حينذاك. الأمر الذى يجعـــل المـــؤرخ المحدث يبذل جهداً جهيداً من أجل البحث عن "المسكوت عنه" فى المصادر التاريخية هنا وهناك لعله يجد ضالته التى يتعطش لها.

ثالثاً: التفسير النفسى لتاريخ الحروب الصليبية:

مـــن الأمـــور المقررة، أن التفسير النفسى قد نجح نجاحاً كبيراً فى مجالات الإبداع الأدبـــى، ودراســـات الـــنقد الأدبـــى، غير أنه فى مجال الكتابات التاريخية اعتاد المؤرخون الاعـــتماد علي تفسير الأحداث السياسية من خلال الدوافع الاقتصادية، والدينية، والاجتماعية، ومـــع ذلـــك؛ فإن التفسير النفسى لأحداث التاريخ – خاصة خلال مراحل الصدام الحضارى واندـــلاع الحـــروب الكبرى بين قوى شديدة التباين في نمط الحياة ذاتها، وكذلك في المصالح ..... الـــخ – أمـــر حيوى للغاية، وبالتالى فإن تاريخ الحروب الصليبية يصعب فهمه فهما حقيقـــياً – وفق تصورى الشخصي – دون إدراك الدوافع النفسية التى حركت الأفراد القياديين وكذلك جموع الحشود البشرية ذاتها.

وهـــناك فـــى هذا المجال العديد من المصطلحات التى تفيدنا مثل الكارزمية – وقد أشـــرت إليها من قبل – ثم سيكولوجية الحشود، والسادية، والفوبيا... إلى آخر تلك المدلولات النفســـية ذات الأهمـــية الكبـــيرة فـــى أحـــداث ذلك العصر، ومما يذكر هنا؛ أن المؤرخين المعاصـــرين اعتادوا تناول أبناء عصرهم على أنهم أسوياء من زاوية الصحة النفسية، بل أن المؤرخين المحدثين تعاملوا معهم بذات التصور، وهو أمر يمثل مشكلة حقيقية، فالمنطق يدعو إلـــى تصـــور أن هناك أشخاصاً أسوياء وآخرين لم يكونوا كذلك، لقد كانت هناك شخصيات حركـــتها عقد نفسية مثلما يحدث فى كل عصر تاريخى آخر، ودون إدراكها يصعب أن نضع أيديـــنا علـــى مفاتيح تلك المرحلة الثرية من مراحل الصراع بين الشرق والغرب فى القرون الوسطى.

وأود أن أقدم هنا أمثلة على المستوى الفردى، والجماعى، لتوضيح ذلك الأمر؛ فعلى المســـتوى الفـــردى؛ نجـــد ان الفارس الفرنسى رينودى شاتيون أورناط الذى مكث فى أسر

المسـلمين قرابة عقد ونصف من الأعوام، عندما خرج من سجنه، حركته – على الأرجح – رغـبة عارمـة فـي الثأر من المسلمين، لقد كانت تلك الرغبة المتأججة فى صدره أكبر من قدرتـه علـى كـتمانها، وجـاء وصـول ذلك الرجل إلى صدارة الصفوف الأولى فى قيادة الصليبيين كان بمثابة إعلان حرب حقيقية على المسلمين، وهكذا، كان إرناط عاملاً رئيسياً في حـدوث الصـدام الحربى الكبير في معركة حطين في ٤ يوليو ١١٨٧م الذى أدى إلى انهيار مملكـة بيـت المقدس الصليبية بعد أن عمرت قرابة تسعة عقود من عمر الزمان ١٠٩٩ – ١١٨٧م مع عدم إغفال تأثير الظروف التاريخية الأخرى ذاتها حينذاك بطبيعة الحال.

والمثال الآخر؛ يمكن إدراكه في المؤرخ البارز وليم الصورى، لقد تحرق شوقاً من أجـل الوصول إلى منصب بطريرك بيت المقدس، غير أنه لم يصل إلى ذلك المنصب الرفيع ووجد من هم أقل كفاءة منه يصلون إليه، بل ومنهم من كانت تشوب سمعته الشخصية شوائب أخلاقـية يـندى لها الجبين – مثل البطريرك هرقل – ومن المفترض أن تلك الزاوية شكلت "عقـدة نفسـية" حقيقية لذلك المؤرخ الفذ، وأن إحساسه بذلك الواقع الشخصى المتردى، وعدم تحقيقه لطموحاته ملكت عليه فؤاده، جعله ينتقل من "الخاص" إلى "العام" فرصد الزوايا السلبية فـى تـاريخ الصـليبيين المعاصرين له، ولذلك تحدث عن من يقوم بإنقاذ مملكة بيت المقدس الصـليبية، بل توقع انهيارها من قبل حدوث ذلك على اثر حطين، وفى تقديرى، أن أزمة ذلك المـؤرخ النفسـية الشخصية الخاصة – على الأرجح–، جعلته يدرك ما لم يدركه أقرانه من المؤرخيـن من عوامل الانهيار الداخلى للمملكة المذكورة بالإضافة إلى روحه النقدية ورؤيته العقلانية لوقائع التاريخ ذاتها.

وهكذا؛ فإن التفسير النفسى لتاريخ تلك المرحلة يقدم لنا اقتراباً مهماً لزوايا متعددة قد لا تفصـح عنها المصادر التاريخية بصورة مباشرة بل علينا البحث فيما بين السطور لإدراك الأزمـات النفسـية وأبعادهـا وآثارهـا فى سلوك الأفراد القياديين سواء على مستوى الفعل السياسى أو الكتابة التاريخية ذاتها.

وعلـى الصـعيد الجماعى؛ نجد أن الغزاة الصليبيين عندما قدموا إلى المنطقة قاموا بعدد من المذابح ضد اليهود كما فى حوض الراين بألمانيا عام ١٠٩٦م وكذلك ضد المسلمين بلغـت ذروتهـا فى ١٥ يوليو ١٠٩٩م فى صورة مذبحة بيت المقدس الشهيرة التى يقال أن عشـرات الآلاف مـن المسـلمين راحوا ضحيتها، وعند بحث دوافع الصليبيين لارتكاب تلك المذابـح، لابـد مـن الاعتراف بأن البحث فى نفسيتهم وسيكولوجية الحشود يمكن أن تفيدنا، فهـناك الرغـبة فـى الثأر، ثم هناك التلذذ بتعذيب الآخرين أو ما عرف بالسادية Sadism، حقـيقة أن المصـادر التاريخـية المعاصرة لا تحدثنا مباشرة عن تلك الزوايا النفسية غير أن علينـا تحليل ما ورد فيها من معلومات من أجل التوصل إلى ماهية الحالة النفسية والمزاجية العامـة التى حركت الصليبيين لاتخاذ موقف جمعى عدوانى تجاه المسلمين بمثل تلك الصورة

البشـــعة، وذلـــك دون إغفـــال الدوافع المحركة الآخرى، كالتعصب الدينى الشديد على سبيل المثال.

وقـــد يتساءل القارىء، وما وجه الأشكالية هنا؟ والإجابة عن هذا التساؤل تتمثل فى المؤرخيـــن عمومـــاً لا يفضلون ذلك الاتجاه، ولم يصل التفسير النفسى للتاريخ إلى المستوى اللائـــق بـــه من الاعتراف الأكاديمى على الرغم من أهميته الكبيرة، لقد قطع التفسير النفسى شـــوطاً كبيراً فى مجال النقد الأدبى – كما أسلفت الذكر – ؛ غير أنه لم يزل يحبو في مجال تفسير أحداث التاريخ ضمن سياقها الحقيقى الذى وقعت فيه.

رابعاً: تغييب دور المرأة في عصر الحروب الصليبية:

من الملاحظ أن عصر الحروب الصليبية سواء في الغرب الأوربى أو فى بلاد الشام شـــهد ظاهـــرة "تعـــاظم تاريخ الرجل" على حساب دور المرأة، لقد أبرز المؤرخ الرجل دور الرجال عموماً فى صنع الأحداث، وندرت الإشارات المصدرية الخاصة بالمرأة بصفة عامة، ولا نملك تعليلاً لذلك سوى الطابع المحافظ للقرون الوسطى عموماً فى الشرق والغرب، وذلك علـــى الـــرغم من أهمية الدور الكبير الذى لعبته المرأة فى ذلك العصر كأم، وزوجة، وابنة، وأخـــت، غير أن المصادر التاريخية تتجاهل ذلك – إلا فى القليل النادر – لتظهر دور الرجل المحـــارب والسياســـى، دون الحديـــث عن الخلفيات الحياتية التى كان عليها، ويمكن القول – دونمـــا مبالغة – أن عصر الحروب الصليبية شهد دوراً بارزاً للمرأة – على نحو مفترض – لـــم يكن ليقل عن الرجل، غير أن الأخير كان الخصم وكان الحكم في نفس الحين، فعمل عادة على عدم إبراز دور المرأة، على نحو قدم معه صورة العصر منقوصة على نحو مؤكد.

وقـــد يـــرد الـــبعض أن هناك أعلاماً من النساء الصليبيات والمسلمات مثل المملكة الصـــليبية مـــيلزندا أم الملك الصليبى بلدوين الثالث، واليانور زوجة الملك لويس السابع ملك فرنســـا، كذلـــك لا نغفـــل دور ضـــيفة خاتون، وست الشام وشجر الدر وغيرهن من النساء المعاصـــرات. غـــير أن هذه أعداد قليلة من النساء البارزات على مستوى القمة، أما القاعدة الشـــعبية العامـــة، فالمرأة فيها لا ذكر لها في المصادر التاريخية بصورة متوازنة مع ما ورد بشأن الرجل.

إن ذلـــك الوضع الذى يمثل وبحق "مشكلة" في معالجة المصادر التاريخية لما اعتدنا تســـميته فـــى عصـــرنا الحـــالى بأنها "نصف المجتمع" انتقل إلى المعالجات الحديثة. فمازال الباحـــثون يـــتجهون إلى "الرجل" كفاعل تاريخى دون التعرض إلا نادراً للمرأة،على نحو دعم "الـــتاريخ الذكـــورى" لتلك الحقبة وبالتالى يمكن القول أن المرأة فى عصر الحروب الصليبية ظلمت عدة مرات، فقد ظلمت عندما غدر بها المشروع الصليبى تحت أوهام صنعتها البابوية مـــن أجل الذهاب إلى الشرق حيث الأنهار التى تفيض لبناً وعسلاً وسارت بجوار الرجل إلى هـــناك، غـــير أن الأيام أثبتت أن الثمن الفادح دفعته المرأة حيث كانت الأرملة، والثكلى من

جـــراء الصـــراع مـــع المسلمين فى الشرق، وظلمت عندما تجاهلها المؤرخون المعاصرون بالصـــورة التى شهدت عليها كتاباتهم نفسها، وظلمت من المؤرخين المحدثين – وهم فى ذلك فـــي وضع اضطرارى – عندما ساروا في نفس مسيرة المؤرخين المعاصرين الذين تعرضوا لذلك العصر بالكتابة التاريخية وكان لهم موقفهم حيال المرأة.

وقـــد يرد البعض على تلك العبارات السابقة بأن الأمر فيه جانب من الافتعال، وأن طـــابع تلـــك المشكلة موجود في الكتابة التاريخية عموماً قديماً، ووسيطاً، وحديثاً. والرد على ذلـــك أنـــنا ينـــبغى أن ندرك حجم المشكلة فى واقعها الصحيح، واستمرارها لا يعطيها حق الوجـــود دون الـــتعرض لأبعادها بالدراسة. وبالفعل يمكن وصف المرأة في عصر الحروب الصـــليبية بأنهـــا كانت الجندى المجهول وراء تاريخ الرجل خاصة المرأة المسلمة التى وقفت تدعم الجبهة الداخلية في مواجهة الغزو الصليبى الاستنباطى للمنطقة.

خامساً: الريف والمدينة والعلاقة الجدلية بينهما وأثرها على الكتابة التاريخية:

واقـــع الأمـــر؛ أن بـــلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، على الرغم من اتساع مســـاحة الـــريف فيها على المستوى الجغرافى ومحدودية المدن فيها، إلا أن الريف كان حظه مـــن الكتابة التاريخية الإسلامية والصليبية محدوداً بصورة تسترعى الانتباه، على نحو يكشف عـــن التناقض بين "المساحة الجغرافية"، و"مساحة الإشارات المصدرية التاريخية"، وعلى حين تـــناثرت الإشارات الخاصة بالمدن مثل دمشق، حلب، بيت المقدس، عكا، إنطاكية، طرابلس، حمـــص، حماه، بيروت إلى غير ذلك من المدن الشامية سواء العواصم السياسية أو الموانىء الـــتجارية أو المـــدن ذات الطبيعة المقدسة نظراً لطابع الحج بها كما الحال فى بيت المقدس، علـــى الـــرغم من ذلك كله؛ إلا أن الريف تعرض لتهميش المصادر بصورة واضحة، وصار لديـــنا تـــاريخ للمدن أكثر من كونه تاريخاً للريف ويمثل ذلك تناقضاً واضحاً في ذلك العصر والكتابة التاريخية بشأنه.

لقد استأثرت مدن الشام الكبرى خاصة دمشق، وبيت المقدس بجانب كبير من اهتمام المؤرخيـــن فألفـــت الكتب المتخصصة في فضائلها، وحتى فى خططها، ودروبها، ومسالكها، وأسواقها وقياسرها على نحو يجعل المؤرخ يملك مادة مصدرية ثرية معاصرة عن تلك المدن بيـــنما يجد الصمت يلف القطاع الريفى حينذاك – إلا القليل النادر – أرضاً وبشراً، وتعرض الأخـــيرون – وأعـــنى بهم عناصر الفلاحين – إلى التهميش بحكم الانتماء الطبقى للمؤرخين، وبحكم استئثار أهل المدن باهتمام الكتابة التاريخية حينذاك.

ولا نغفـــل أن الـــريف الشـــامى – خاصـــة فى مناطق الحدود بين أملاك المسلمين والصـــليبيين – نكب من جراء الصدام الحربى بين الطرفين، ودفع الريف الشامى المسلم ثمناً باهظاً في العديد من الأحيان من جراء سياسات التخريب، والسلب، والنهب التى اتبعها الغزاة

مـــن أجـــل تدمير موارد المسلمين الاقتصادية وكذلك إجبار الفلاحين على ترك أراضيهم إلى مناطق أكثر أمناً ليسهل على الصليبيين الاستيلاء عليها من بعد ذلك.

وحقيقة الأمر؛ أننا نجد إشارات متناثرة عن الريف خاصة لدى الجغرافيين والرحالة المسلمين – على سبيل المثال. مثلما لدى الإدريسى (ت ق ١٢م) فى كتابه نزهة المشتاق في اخـــتراق الآفاق، وابن جبير (ت حوالى ١٢١٦م)[7] فى رحلته الشهيرة، وذات الأمر يمكن أن يقال عن بعض الإشارات عن عدد من المستعمرات التى شيدها الصليبيون في الضفة الغربية لـــنهر الأردن كما فى حالة البيرة (ماجنا ماهومريا) Magna Mahumeria والقبيبة، وكفر مـــالك حيث نجد عنها تلك الإشارات في عدد من المصادر التاريخية الصليبية المعاصرة ومن أمثلتها مؤلفات الرحالة الأوربيين وكذلك وثائق كنيسة الضريح المقدس[8] إلا أن تلك الإشارات لا تـــتفق البـــتة مع ما لذلك القطاع من أهمية كبرى بحكم كونه المخزون البشرى والانتاجى الذى شكل الجبهة الداخلية لكل من طرفى الصراع.

سادساً: الموضوعية فى الكتابة التاريخية عن عصر الصليبيات:

يعـــد عصـــر الصليبيات وبحق – عصراً معقداً في التفاعل معه على صعيد الكتابة التاريخـــية ومـــدى ما بها من موضوعية واجبة، فى ظل العداء السياسى، والدينى، ونفى كل طـــرف للآخـــر، كذلـــك أدت السياسات التى اتبعها الصليبيون والمذابح التى ارتكبوها بحق المســـلمين خـــلال المرحلة من ١٠٩٨ إلى ١١١١م إلى تكون ميراث للكراهية صنعته أساساً روح التعصـــب الصـــليبى ضد كل ما هو غير مسيحى، وانعكست روح العداء بين الطرفين علـــى كـــتابات مؤرخى ذلك العصر، وعبروا عن ذلك فى التراث التاريخى الذى وصل إلينا، والآن؛ وبعـــد مرور تسعة قرون من اندلاع آتون الحروب الصليبية، هل نجد موضوعية فى كـــتابات كل طرف عن الآخر؟، واقع الأمر؛ أن شرط الموضوعية كانت تنتابه فى العديد من الأحيان عوامل تخرجه عن مساره الطبيعى مثل العداء السافر بين الجانبين، وميراث الكراهية المتنقل من جيل لآخر، وباستثناء حالات من الأحكام الموضوعية، كما نجد فى كتاب الاعتبار لأســـامة بن منقذ من حيث إيراد المزايا ومظاهر النقص لدى الطرف المعادى، وامتداح وليم

---

[7] عن ذلك انظر:

الإدريســـى، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق ديلافيلا وآخرين، ط. نابولى ١٩٧٠ – ١٩٧٧م، ص٥٦٣ ابن جبير الـــرحلة، ط. بيروت ب.ت، ص٢٧٥، محمد مؤنس عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية ط. القاهرة ١٩٩٥م، ص٣٣،ص٣٠٣.

[8] عن مستعمرة البيرة الصليبية انظر:

Pringle, "Magna Mahumeria (al – Bira) the Archaeology of a new town in palestine", in Crusade and settlement, ed. by peter W.Edbury, Cardiff 1985, pp. 148 – 168, Abel, :Les deux Mahumeria El Bira, Elqoubeibeh" R.B., T.XXXV, 1926, pp. 272 – 283.

محمـــد مؤنس عوض، "أضواء على مستعمرة البيرة الصليبية Magna Mahumeria (١١١٥ – ١١٨٧م/ ٥٠٩ – ٥٨٣ هـــ) مجلة بحوث الشرق الأوسط، العدد (١٠)، مارس ٢٠٠٢م، ص٧ – ٨٥.

الصـــورى لنور الدين محمود على سبيل المثال؛ نجد أن العداء الشديد حكم مواقف المؤرخين فـــى ذلـــك العصر، ودونما شيفونية خرقاء؛ نجد أن المصادر الصليبية حملت عداءً دفنياً ضد الإســـلام وأهلـــه، ولم تتوافر لدى أوربا النظرة الموضوعية لذلك الدين وأهله إلا لدى قطاع محـــدود مـــن الباحثين المحدثين، أما تراث العصور الوسطى فهو تراث قائم على نفى الآخر وعـــدم الاعـــتراف بـــه. ممـــا يجعل من كتابات مؤرخى تلك العصور بصفة عامة، وعصر الحـــروب الصـــليبية بصـــفة خاصـــة، نوعاً من الذاتية الصرفة – فى العديد من الأحيان – وبصورة تكشف لنا عن مأزق الكتابة الموضوعية وحتى على مستوى الكتابة الحديثة عن ذلك الصـــدام بين الشرق والغرب حينذاك، نجد انعكاسات الماضى حاضرة الآن، ولا نغفل زاوية مهمة، وهى أن من الصعب بل والمستحيل أحياناً أن نطلب من أهل البلاد الأصليين أن يكونوا موضـــوعيين في تناول تاريخ الغزاة الذين هاجموا بلادهم، واصطبغ تاريخهم بروح التعصب ونهبوا موارد المنطقة نهباً منظماً.

نحن بالفعل أمام مشكلة المشاكل، كيف نسعى للكتابة بموضوعية عن نهب المنطقة؟ وفـــى تقديرى أن من الموضوعية إبراز كيف تم سلب ونهب المنطقة العربية عندما قدم إليها الغرب الأوربى تحت قناع الدين كى يقوموا بالسطو عليها.

سابعاً: المركزية الأوربية وأثرها على الكتابة التاريخية الحديثة عن عصر الحروب الصليبية:

من المعروف؛ أن تاريخ الحروب الصليبية من خلال المعالجة الحديثة بدأ فى الغرب الأوربـــى فـــي أخـــريات القرن التاسع عشر الميلادى، وتطور على أشكال متعددة مثل نشر المصـــادر التاريخية وكذلك التأليف في العديد من موضوعات تاريخ تلك الحروب، وصارت لديـــنا أعمـــال عدة مدارس مثل المدرسة الفرنسية، والإنجليزية، والألمانية، ثم امتد الأمر إلى وجـــود مدرســـة أمريكـــية لها إسهامها فى ذلك المجال، وصار لدينا بالتالى آلاف الدراسات التاريخـــية فـــي صـــورة كتـــب، أو مقـــالات بعدة لغات أوربية مثل الإنجليزية، والفرنسية، والألمانـــية، والإيطالـــية، والأسبانية، والبرتغالية، بل والسويدية، والدنماركية ... الخ، ويكفى للتدلـــيل علـــى حجـــم التأليف فى مجال تاريخ الحروب الصليبية فى الغرب الأوربى واتساع نطاقـــه؛ أن المؤرخ الألمانى البارز هانز ماير Hans Mayer قد ألف كتاباً بالألمانية عنوانه: Bibliographie Zur Geschichte der kreuzzuge, Hannover 1965. أى بيلبوغرافـــيا علـــى تاريخ الحروب الصليبية، ط. هانوفر ١٩٦٥م، وفى هذا الكتاب يحدد لنا المؤلـــف عدد (٥٣٣٣) دراسة عن الحروب الصليبية حتى العام المذكور، ويلاحظ أن الخمس وثلاثيـــن عاماً التالية شهدت إنفجاراً معرفياً فياضاً من المؤلفات الحديثة فى المجال المذكور، وكذلك في وسائل الاتصال لاسيما شبكة الأنترنت ويمكن متابعة جزء مهم منها فى القسم الذى خصصـــه ذلـــك المؤلف فى الجزء الأخير من موسوعة سيتون عن تاريخ الحروب الصليبية Setton, Ahistory of the Crusades, vol. Vi, Wisconson 1989. أمـــا العـــالم

العـــربى؛ فقـــد عرف التاريخ الحديث للحروب الصليبية بعد الحرب العالمية الثانية عندما عاد بعض المؤرخين المصريين الرواد من بعثات من إنجلترا وفرنسا ليقودوا باحثين شبان آخرين فـــي المجـــال المذكور، ونذكر فى هذا المجال جهد الرائد البارز الراحل أ.د. محمد مصطفى زيـــادة الـــذى أشـــرف بدوره على أستاذين رائدين كبيرين هما أ.د. حسن حبشى، أ.د. سعيد عاشـــور؛ وهمـــا مـــن كبار مؤرخى العالم العربى فى مجال الصليبيات، ولا نغفل أن العالم الـــراحل أ. عزيز سوريال عطيه، أشرف على العالم الراحل أ. جوزيف نسيم يوسف[9]، ويعد من أهم من ألف، واشرف على العديد من الطلاب فى جامعة الإسكندرية، ولتتواصل المسيرة من بعد ذلك على أيدى مؤرخين آخرين في مصر وشقيقاتها العربيات وبصفة عامة؛ فإن عهد التأليـــف فـــي الصـــليبيات فـــي العـــالم العربى حديث إذا ما قورن بالعالم الغربى الأوربى، والأمـــريكى، وتعـــانى دراسة الصليبيات فى العالم العربى من التناثر وغياب مراكز الأبحاث ويلاحـــظ هـــنا؛ أنـــنا كباحثيـــن عرب نعتمد فى مجال الصليبيات نعتمد على جهد الأوربيين والأمريكييـــن التأليـــفى، وهم ينطلقون من منطلقات دينية وسياسية تختلف تمام الاختلاف مع نظائـــرها لـــدى المؤرخين العرب والمسلمين عموماً. ومن هنا جاءت خطورة الاعتماد على كـــتابات المؤرخين الغربيين دون ملاحظة ما تنطوى عليه من أهداف، ومآرب، ولا نغفل أن القضـــية ترتـــبط ارتـــباطاً وثـــيقاً بحركة الاستشراق، ونظرة الغرب للشرق مع ملاحظة أن الارتـــباط بيـــنهما مـــن خلال ندية حقيقية أمر غير وارد، ونظرة المؤرخين الغربيين لتاريخ عالمـــنا العربى في العديد من مراحله نظرة تنطلق من منطلقات شيفونية، والقليل الذى يتعامل مـــع قضـــاياه بنوع من التوازن والاعتدال، ولاريب فى أن الأمر مرتبط بمراحل طويلة من العـــداء بيـــن الشرق والغرب، كان الشرق خلالها مستهدفاً، وكان الغرب فيها يقود مشروعاً للتوسع والهيمنة خدمة لمصالحة ومطامعه العليا.

ويكفـــى للتدلـــيل علـــى آثـــار المركـــزية الأوربية ما يمكن وصفه. ويحق "بأزمة المصـــطلح"؛ فالملاحظ أن عصر الصدام بين الغرب والشرق – بحكم أن الغرب هو الذى بدأ الصدام أصلاً مع الشرق – احتوى على العديد من المصطلحات صنعتها تلك المركزية، ومن أمثلتها مصطلح "الحروب الصليبية"، وهو مصطلح خاطىء وشائع للأسف الشديد على الرغم مـــن أنه لا ينطبق على الواقع في شيء وبالتالى فهو مضلل أكثر من كونه معبر عن الحقيقة، ثم مصطلح الشرق الأدنى والشرق الأوسط وهى نتاج حركة الاستعمار الأوربى الحديث التى صـــنفت الشـــرق إلـــى أدنـــى وأوسط وأقصى من خلال المركزية المشار إليها، كذلك نذكر

---

[9] عن الاطروحات العلمية التي أشرف عليها الراحل أ.د. جوزيف نسيم يوسف لنظر: دليل الرسائل الأكاديمية (دكتوراه – ماجستير – دبلوم) التى أجيزت بكلية الآداب – جامعة الإسكندرية من ١٩٤٢ – ١٩٩٨م، ط. الإسكندرية ١٩٩٩م، ص١٦٨ – ١٧٨.

مصـــطلح ريكونكويستا Reconquesta أو حرب الاسترداد الإسبانية، من وجهة نظر أسبانيا بالطبع والذى يستعمله البعض من الباحثين العرب دون إدراك لخطورته.

وواقع الأمر؛ إن من المهم العمل على دراسة مثل تلك المصطلحات وخطورتها على الكـــتابة التاريخـــية فـــى منطقتنا العربية لأنها نتاج مؤرخى وسياسيى الغرب خدمة لأهدافهم ونســـتعملها على الرغم من التباين الشديد في رؤيتنا لتاريخنا ورؤيتهم هم، وبالتالى فالمشكلة الحقيقـــية ليســـت مشكلة مصطلح بل التعبير عن إطار فكرى نظرى أكبر وأشمل لتجنب أن يصبح مستهلكين لكتابات الغرب التاريخية.

وفى تصورى أنه لا سبيل للفكاك من المركزية الأوربية إلا من خلال خلق مركزية عربـــية إسلامية تهدف لإبراز الهوية الدينية، والشخصية القومية، لا أن نكون تابعين للغرب علـــى حســـاب تلـــك الهويـــة خاصة فى الآونة الأخيرة التى ظهرت فيها ادعاءات العولمة، والفرنكفونية، وكلها تعنى إذابة الهوية الدينية واللغوية، لمصلحة قوى أوربية وأمريكية تهدف إلـــى الســـيادة العالـــية بكـــل الصـــور والمستويات الثقافية – وهى أخطرها – والاقتصادية، والسياسية.

ومنطقى أن ذلك يتحقق من خلال إقامة مراكز البحوث المتخصصة[10]، التى تتابع ما يصدر فى الغرب الأوربى والأمريكى، وتتناوله بالبحث والدراسة والنقد، ثم إصدار المؤلفات الببليوغرافـــية العربية[11] من أجل رصد ما يصدر لا أن يكون العرب بمثابة جزر متناثرة كل يعمل دون أن يعرف ما يؤلفه غيره من الباحثين فى المجال المذكور.

وأود أن ألفـــت نظـــر القـــارىء إلى أن المؤرخين الإسرائيليين[12] لهم دور بارز فى مجال تاريخ الحروب الصليبية حالياً، وعلينا أن يكون لنا دورنا ونرد على ما فى مؤلفاتهم من

---

[10] ســـبقت لـــى المطالبة بمثل تلك المراكز المتخصصة عن ذلك انظر: محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية دراسات تاريخية ونقدية ص١١٢. وتمت الاستجابة بالفعل من جانب القائمين على مؤتمر بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية الذى عقد في جامعة اليرموك وصدر عنه هذا الكتاب القيم: مجموعة من الباحثين، بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجى ٤٩٠ – ٦٩٠هـــ، جامعة اليرموك ٢٠٠٠م، ص١٧ (حيث وردت الاشارة إلى مثل تلك المراكز المتخصصة ضمن توصيات المؤتمر).

[11] عن جهود المؤرخين العرب في مجال الحروب الصليبية انظر: قسطنطين زريق، ما ساهم بالمؤرخون العرب في المائة السنة الأخيرة في دراسة التاريخ العربى عن فترة الحروب الصليبية.مجلة الأبحاث – الجامعة الأمريكية بروت، السنة (١١٢ ، جـــ(٢٢ يونيو ١٩٥٩، محمد مؤنس عوض، فصول ببليوغرافية في تاريخ الحروب الصليبية.ط. القاهرة ١٩٩٦م، ص ١٧٧ – ٢٥٤.

[12] عن اسهاماتهم انظر:

يوشـــع براور، عالم الصليبيين. ت. قاسم وخليفة، ط. القاهرة ١٩٨١م. الاستيطان الصليبي في فلسطين مملكة بيت المقدس الصليبية، ت. عبد الحافظ عبد الخالق البنا، ط. القاهرة ٢٠٠١م، محمد مؤنس عوض، فصول ببليوغرافية ص٢٠٧ – ٢٩٤ حيث تم تخصيص فصل مستقل للتعريف بأهم المؤرخين الإسرائيليين وإسهاماتهم في المجال المذكور.

إدعاء بشأن حقوق يهودية فى أرض فلسطين أو المبالغة فى حجم الدور اليهودى خلال أحداث الصراع بين الشرق والغرب فى القرنين ١٢،١٣م.

مجمـــل القول؛ أننا نواجه تحديات خطيرة وعلينا أن نتنبه إلى أهمية دراسة التاريخ عمومـــاً، وتاريخ صراعنا مع الغرب، خلال القرون الوسطى من أجل المحافظة على هويتنا فلاريـــب أن دراسة مرحلة الحروب الصليبية من شأنها تعميق الهوية، والاستفادة من تجاربنا فـــى الاصـــطدام مـــع الغـــرب، وعدم الوقوع فى أسره، والانبهار به، لأن تلك هي بضاعته وسيطاً، وها هى الآن بضاعته حديثاً، ولا يفهم من تلك العبارات آية خصومات معه فالتاريخ حـــوار الحضارات، غير أن الحوار المطلوب قائم على الندية والاعتراف بالآخر لا إلغائه أو الـــتعامل معـــه بدونـــية، لأن أمـــة العرب لها الفضل الحضارى على أوربا ذاتها فى القرون الوســـطى، وعلينا الخروج من مأزق التفاخر بالماضى لنصنع ذاتنا الحالية بثقة بالنفس وإنهاء وهـــم التفوق الغربى الذى صنعها المستعمر فى نفوسنا كى نظل نعمل في فلكه ولا نتمكن من الخـــروج من أسره وبالتالى نتجاوز مرحلة :التاريخ العبء: إلى مرحلة أخرى مغايرة وأعنى بها مرحلة :التاريخ الحافز" وهو أمر أساسى لأية نهضة مستقبلية مرتقبة.

ذلـــك عـــرض لملامح إشكالية دراسة تاريخ الحروب الصليبية فى بلاد الشام خلال القرنين ١٢،١٣م.